سَليم حيدَر الشّاعِر السّؤال

على فالق الزمان وفارق المكان، بيني وبينه شراكتان من حقٍّ وشعر. كمالكَيْ أسهم لحاملها في شركةٍ مغفلة، لم يعرفْ أحدُنا الآخر، ولا التقَينا البتة، لكننا اشتركنا في عمليّاتِ توزيع أرباحٍ جزيلةٍ ثمينةٍ ودائمة... من تلك التي يوزّعُ الحقُّ والشعر.

لكنْ بلى، عرَفتُه من قَبْل، وألقيتُ عليه تحيةً خَطْفًا، يومَ استضافَنا شيخُ العربيةِ مارون عبود إلى إحدى موائدهِ العامرةِ بثمارِ البحر الأدبيّ: سليم حيدر مكتوبًا في جملةٍ من صفحةٍ من كتاب، وأنا قارئًا. قدّمه إليَّ الشيخ المضيف هكذا: "صديقي وتلميذي الأديب المرتجى الدكتور سليم حيدر كتب تخطئةً لأستاذه في السوربون وهو من أيمة المستشرقين في ترجمة "الخلفاء الراشدون" فقبلها منه وأذعن[1]." فقلتُ في خلَدي: ألله الله! مارون عبود الذي قرَّع طه حسين على نقله مقولات المستشرق بلاشير في المتنبي من دون نقد، هو نفسُه يطري تلميذَه سليمًا بهذا الفخر! ألا إنها شهادةٌ بألفِ ألف.

وبه مررتُ مرارًا، في بعض الكتبِ والصحف، أو على ألسنة الناسِ صحائفِ الحمد. لكنني لم أعرفْه حقيقةً إلا حين قرأتُه في الربع الأول من زمن تصريف الأعمال الذي نحن فيه، يوم زكّاني معالي الوزير القاضي محمد وسام المرتضى لهذا المنبر، فزودني الدكتور حيان بثقته وبكتب أبيه، وهاءنذا اليوم أمامكم، شاهدٌ على السماع لمن شهد له مارون عبود معاينةً، وكتب فيه عن كثبٍ السيد محمد حسين فضل الله وتوفيق يوسف عواد وعمر أبو ريشة وبولس سلامة وعلي

[1] م. عبود، *المجموعة الكاملة*، المجلد الخامس في النقد الأدبي، دار مارون عبود، ط 4، بيروت 1979، كتاب "دمقس وأرجوان"، ص 285

شلق وكمال يوسف الحاج، وإدمون رزق وغالب غانم وطلال سلمان وهمذان سليمان وساسين عساف وعلي حسن وسواهم، فهل بعد شهاداتهم شهادةٌ؟ هل عطرٌ بعد عروس؟ كما قالت العرب.

أما وقد عَزَمت وتوكَّلْت، فمثلما يفعلون أمام القوس، أرفع اليمنى بأن أقول الحقَّ لا سواه؛ وأوَّلُه أنني ما شرعْتُ في قراءةِ الرجل حتى وجدتُني في خضمِّ حبر مائج. وفيما أنا مُصارعٌ ضَنْكَه لوَّحَ لي طيفُ أبي الطيب بشطرِ بيته الشهير: "ولكنَّه من يزحَمِ البحرَ يغرقِ". فتمسَّكْتُ بخشبةٍ كانت أقربَ الأمل إليّ، هي كِسْرةٌ من قلم سليم حيدر، وجدتُها طافيةً على العناوين، سابحةً بين ديوان وديوان وقصيدة وقصيدة وبيت وبيت، لها شكلُ سؤالٍ متلاطمِ المفردات، فقلتُ لنفسيَ: يا نفسِ أسلمُ النّجاةِ الحديثُ في عنوانٍ وحيد هو: "سليم حيدر الشاعر السؤال"، وأسطعُ منارةٍ تهدي إلى شاطئ الأمانِ قولُه:

بيَ توقٌ إلى السؤالِ مريضٌ ونفورٌ من الجوابِ غريبُ[2]

أبدأ بلفت الانتباه إلى أن واحدًا من أهم مقومات الحداثة الشعرية التي بدأت في نهايات النصف الأول من القرن العشرين مع السياب ورفاقه، كانَ تخليَ الشاعر عن الغائيَّةِ في قصيدته، أي عن المرمى الذي يبتغي إيصالَه للمتلقي. فالقصيدة قبل الحداثة كانت لها وظيفةُ السعيِ إلى معانٍ مقصودةٍ مسبقًا تتدافع الأبيات كي تبلغها. أما في الشعر الحديث فصارت سيرًا حرًّا باتجاه المجهول[3]. من قبلُ كانت خزانةَ أجوبة؛ من بعدُ صارت قارورة أسئلة. وأشيرُ أيضًا إلى مقولةٍ أعتقدُها: أن للشعر أقاليمَ أربعةً يتجوَّل معظمُه في رحابها، هي الذاتُ والمرأةُ والأرضُ والفكر؛

[2] **س.** حيدر، *ملحمة الخليقة*، الشركة العالمية للكتاب، ط 1، 2001، ص 13.
[3] يراجع بهذا الخصوص، فوزي كريم، شاعر المتاهة وشاعر الراية، منشورات المتوسط، ميلانو إيطاليا، 2017، ص 7

حتى ليندرُ أن توجد قصيدةٌ لم يُمهَرْ جواز سفرِها عبر العصور، بِسِمَةِ دخولٍ إلى واحدٍ من هذه الأقاليم. لكنَّ قلةً من الشعراء جعلوا السؤالَ المحض لغةً تشغلُ محابرَهم بدوام شبه كامل. سليم حيدر منهم، فإن قصائدَه حقولٌ من علامات استفهام، ينبت فيها السؤالُ لزًّا بجنبِ أخيه، سنابلَ أبجديةٍ مثقَلَةً بالمجهول. بل لعلَّه هو بذاته سؤالٌ من لحمٍ ودمٍ وخيالٍ ووجدان، فإن صحَّ قولي هذا أصبح خطأً قولُه ذاك عن توقِه المريضِ إلى السؤال، فإنه بحِسْباني لم يكن يجدُ السلامةَ الحقَّةَ إلا متى تَوَعَّكَت دواتُه بالأسئلة. بل لعلَّه في كلِّ ما كتب وفعل، كان يستعيد قول سقراط في محاكمته أمام الأثينائيين: "إن الحياةَ بلا تساؤلاتٍ لا تستحقُّ أن تعاش".

انطلاقًا من هاتين المقولتين أدخلُ وإيّاكم إلى دارةِ شعرِ الرجل، لا من بوابةِ معانيه المشرَّعَة المصراعَين، بل من كوَّةِ كلماته المطلَّةِ على حدائق الخيالِ وجنائن المجازِ ومشاتل الجمال؛ دخولًا غيرَ آثمٍ ولا حَرِجٍ، فللشعراء وحدهم حين يزورُ بعضُهم قصائدَ بعض، ألّا يأتوا البيوتَ من أبوابِها.

في ديوانه "آفاق" الذي تعود قصائده إلى النصف الأول من أربعينيات القرن المنصرم، أي قبل زمن الشعر الحديث بقليل، كشف سليم حيدر عن كامل هويَّته السؤالية، يوم كان رصيدُ حسابه في مصرفِ العمر دون الخَمسة والثلاثين. فاعجبوا لفتًى ما أوشكَ أن يَخلصَ من لهوه وتحصيله، حتى مضى يغرزُ في جسدِ الحياة سكاكينَ أسئلةٍ عميقةِ الجراح. ذلك كان فيه سجيةَ شعرٍ قبل أن يصير على يد التالين مذهبَ قول. أراد مثلًا أن يصفَ الليل، فأخذَ السؤالُ بقلمه إلى المدى الأبعدِ الذي يحتوي الحُلْكةَ وينتظر الفجرَ الطالع في غدٍ، أَلَوْنُه حقيقةُ سوادٍ أم كناية:

يا ليلُ، ما لونُ المدى في الليلِ منتظرًا غدا
أوَليسَ من بِدَعِ الكنا يةِ أن نراه أسودا؟[4]

[4] س. حيدر، آفاق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016، ص.27.

هذا صدى الحيرة المترجّعُ من حركةِ الالتفاتِ إلى المغلَقِ المعتِم، الذي أطاشَ عقلَ الكلمة في قصيدة أخرى من ديوانٍ آخر:

وشرُّ ما في العَتَمَهْ
أن زلَّ عقلُ الكلِمَهْ.[5]

والذي صار في قصيدةٍ ثالثةٍ شجا شكٍّ وصفوَ يقين وقبضَ خمسٍ على زئبق:

إلى المطلقِ
يطيرُ حنيني
ويعكرُ شكّي ويصفو يقيني
وتقبضُ خمسي على الزئبقِ[6]

في هذه المغاليق المعرفية راح سليم حيدر يتكوَّنُ شعرًا وإنسانًا. وراحت الأسئلة الكبرى تنمو في حقله المعجمي، وتتمدد وتتوالدُ وتستشري. لكنَّ تجلياتها الحقيقية سطعت بأضوأِ ما يكون، في البنايات[7] الشعرية التي شيَّد، أعني القصائد الطِّوال والقصائد الدواوين. سأحاول عبر بعض الأمثلة الشواهد إيضاح السمات الجماليةَ للبعد السؤاليّ في شعره. أختار من الطّوالِ قصيدتين من ديوانِه "آفاق"، الأولى عنوانها "لماذا"[8] أهداها إلى أحمد الصافي النجفي، والثانيةَ عنوانُها "سراب"[9] أهداها إلى المعري.

---

[5] س. حيدر، لبنان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016، ص.81
[6] س. حيدر، أشجان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016، ص.16
[7] أول من استعمل مصطلح البناية الشعرية، كما أظن، هو صلاح لبكي في كتابه "لبنان الشاعر"
[8] س. حيدر، آفاق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016، ص. 62
[9] المرجع السابق، ص 82

يبدأ القصيدةَ الأولى هكذا:

إلهيَ، حِلْمَك، أين المفرّ؟ ووجه السؤالِ استوى واستقرّ
لماذا؟ وكيف؟ وأينَ؟ وممَّ عدمتُ صوابي بهذا الهذَرْ
نظرتُ إليكَ بعينِ الخيالِ فتاهَ على قدمَيْكَ النظرْ
وسرَّحْتُ طَرفي بهذا الوجودِ فلم أرَ للدّينِ إلّا صُوَرْ
وفكَّرْتُ في ما وراء الوجودِ فآمنَ قلبي وعقلي كفَرْ

ويستمر على هذا النحو من محاورة قضية الإيمان والخلق والخطيئة والموتِ والبعث، حتى ينتهي في ختام المطولة التي تبلغ اثنين وسبعين بيتًا إلى القول:

هو السرُّ يخفى على الفيلسوف ويظهرُ طوعًا لقلبٍ شَعَرْ
وللغيبِ في ما خلقتَ شؤونٌ وللنّاسِ في ما خلقتَ عِبَرْ

أما القصيدة الثانية فيبدأها هكذا:

ما المبتدا؟ ما المنتهى؟ ما الغدُ هواجسٌ شطَّ بها المقصدُ
من أزلٍ محلولِكٍ مبهمٍ يطغى عليه أزلٌ أربدُ
لأبدٍ مبتعِدٍ مغلقٍ يعجُّ فيه أبدٌ أبعدُ
نمشي ولا يعلمُ عُلّامُنا حتّامَ نمشي أو متى نقعدُ
نمشي ويبقى في ضمير المدى ما يُمَّحى منّا وما يخلُدُ

وفي هذه القصيدة يحاور الفكر والعلم والعقل والقلب، مستدعيًا أبا العلاء من محابسه الأربعة: العزلةِ والعمى والجسدِ والموت، ومنتهيًا إلى القول:

هيهاتَ ما العلمُ سوى ومضةٍ من بعدِها المحلولِكُ الأسودُ

فلو شئنا أن نتتبع من خلال هاتين القصيدتين، كمثالينِ فقط، سماتِ السؤال الحيدريِّ لتبين أنَّ أولها الحرية التي بها يبيح لقلمه أن يسألَ حتى عن ضرورة الخلق:

وأنت إلهي، لماذا خلقتَ؟ أما كان أولى اتقاء الخطرْ؟
خلقتَ الحياةَ ونولُ الفناءِ يحهّزُ أكفانَ أهلِ الحُفَرْ

والسمةُ الثانية هي الحوار، فهو في خطابه السؤالي يقيم أمامه على الدوام شخصًا ما يتحاورُ وإياه، فتكتسبُ القصيدة على لسانِه كمتكلّم، رواءَ المثنّى الذي يضُجُّ به الشعر العربي، ويزدحمُ حضورُه في تفاصيل الحياة البشرية اليومية. ولكي تحسُنَ لوحاتُه الحوارية في الأسماعِ والأفهام نراه يلوّنها بريشةٍ مصبوغةٍ بصيغة المخاطَب وصبغةِ النداء:

هلّا أجبتم يا أُهَيْلَ الحجى ما الروحُ؟ هل يحيا بها الجلمدُ؟

وأما السمةُ الثالثةُ فالتوالد المتجدد. كان المعري، وبخاصةٍ في اللزوميّات يطرحُ سؤالًا واحدًا في كلِّ مقطوعةٍ ويجيب عليه. أما السؤال في شعر سليم حيدر فقنبلةٌ عنقوديةٌ تتشظّى باستمرار وتُنْبتُ أغمارًا جديدةً من أسئلةٍ لا تنتهي. إنه يعيدُنا في ذلك إلى سقراط، الذي اتخذ السؤالَ منهجًا – مفتاحًا لباب السعي إلى المعرفة، سعيًا لا يعرف ارتواء ولا شِبَعًا، مبنيًّا على القاعدة الشهيرة أن الفيلسوفَ العَلَمَ يعرف أنه لا يعرف.

يقول:

ما الذاتُ؟ ما الأقدارُ؟ ما المبتدا؟ ما المنتهى؟ ما المهدُ؟ ما الملحد؟
هل يولدُ الإنسانُ عفوًا؟ فلا بدءٌ، ولا رجعٌ ولا مِقوَدُ
أمَ انَّه جاءَ على موعدٍ وراحَ لمّا أزِفَ الموعدُ؟

وأما السمةُ الأخيرةُ التي تدخلُه في دائرة الحداثة الشعرية[10]، فهي الجدلية المفضية إلى اللاجواب. هو في الأصل يطرح السؤال ليضرِبَ القِسْمةَ حوله ويجمعَ الجدلَ فيه لا ليصل منه إلى جواب. أولم يقل: **بي نفورٌ من الجوابِ غريبُ؟** السؤالُ عنده حالةٌ شعريّةٌ كائنة بذاتها، لا يعوزُها شيءٌ لتكتمل. أو إذا شئتمُ السؤالُ عنده مسيرةٌ والجواب وقوف؛ وهو بحكم طبيعة تكوينه وظروف دراسته وعمله وتنقله بين الأمصار والأعباء، كما تشهد سيرتُه التي دونها شعرًا في عمارة سمّاها "إشراق" وقال في التوطئة لها: "قطعة من معزوفة حياتي، قد يُكتبُ لها أن تطول، فهي لا تزالُ تعتلجُ في نفسي"[11]، هو بحكم هذا كلِّه مسيرة يتخطى فيها السؤال حدودَ دورِه اللغويّ البيانيّ كأسلوبِ تعبيرٍ، ليحتلَّ مساحةَ الحياةَ كلَّها ويغدوَ أسلوبَ العيش به يصير الشاعرُ... هو السؤال.

آتي الآنَ إلى القصائد الدواوين، وأكتفي بالإشارة لمحًا إلى "ألسنة الزمان"[12] وهي مسرحية ذاتُ فصلٍ واحدٍ من مشاهدَ سبعةٍ يكون الزمان في معظمِها نائمًا والحاضرُ مستترًا، فيما الماضي والآتي يلمِز الواحدُ الآخرَ ويتنابزان بالصفات. هذه المسرحية تحوَّلَ فيها السؤال من علامة استفهامٍ إلى حالة استفهام جعلت من سليم حيدر شاعر الأفق الفلسفي الذي قصَّر عنه المعرّي كما كتب الشيخ عبدالله العلايلي، ومدَّت بين الفلسفة والشعر آصرة قربى كما رأى كمال

[10] كتب سليم حيدر أشعارًا كثيرة معتمدًا الأشكال الحديثة مثل شعر التفعيلة.
[11] س. حيدر، إشراق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016، ص 5.
[12] **س**. حيدر، *ألسنة الزمان*، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط 1، بيروت 2016،

يوسف الحاج؛ لكنَّ المقاربة الجمالية التي أخوض غمارَها في هذه المداخلة تبعدُني قليلًا عن الموضوع الفكري وترمي بي إلى عمق التجربة الإبداعية، التي فيها وضعَ الشاعرُ الأسئلةَ على لسان الزمان الشيخ، وعلى ألسنة أولاده الثلاثة: الماضي والحاضر والآتي، بمشهدٍ من الأزلِ والأبد. هذه الحوارية أخرجت السؤالَ من الاختصاص البشري ووسّعَتْ مدى صلاحياته لتشملَ عناصر الزمان والمكان، كما شملت في قصائدَ أخرى عناصر الوطنية والقومية والسياسة والحرب والغزل والصلاة، فعكست مقدار الشغف الحيدري بسؤالٍ يتركُ القارئ حرًّا في مسيره نحو المجهول، المنفتحِ على آفاقِ الإمكان اللامحدودة، من غير أن يعنيَه وضعُ إشاراتِ مرورٍ تحدِّدُ الاتجاهاتِ والسرعةَ وآناءَ الوقوفِ وأطرافَ الانطلاق[13].

وبعد.

أخبرني أخي الكبير معالي النقيب رشيد درباس، أن إحدى حكومات الرئيس عبدالله اليافي كانت تضمُّ أشتاتًا من وزراءَ متباييني الرؤية والانتماء السياسيّين، فكانوا دائمًا على جدالٍ وتردد في اللاقرار. فوقف النائب سليم حيدر تحت قبة البرلمان وقال: حكومتُكَ يا دولةَ الرئيس كحصانِ امرئ القيس؛ مومئًا بذلك إلى قول الملك الضلّيل: "**مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا**". أعرفُ يا سادتي أن خطابي جاء على هذه الصورة تمامًا، فيه من التردد قلقٌ كثير. هذا لا يهمُّني، لأنني طارئٌ على البحث الأكاديمي والنقد الأدبي، لا أقاربهما إلا سليقةً وعفوَ قلم. المهمُّ عندي ألّا يصدقَ فيَّ عجُزَ ذلك البيتِ، فأكونَ وقعتُ على أسماعكم "**كجلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ**". والسلام.

[13] على الرغم من أنه ذكر في التقديم أن "الزمان يدور حول نفسه حلقةً مفرغة"، لكن مضمون المسرحية ينأى عن مفهوم الزمن الدائري، الذي فصله مرسيا إلياد في كتابه" العود الأبدي"